اشربوا معنا

القهوة العربية



اشـــــراقـــــة

جمع كبير حقا ذلك الذي اجتمع بشكل ملفت للنظر أمام بيت جارنا... شيوخ ورجال وأطفال بألبسة مختفلة الألوان والأشكال... وأنا عائد من عملي إلى بيتي لا أعلم لهذا الجمع سببا، وقد أنهكني التعب وأخذ مني كل مأخذ وجعلني أقتلع قدمي من الأرض اقتلاعا...

وأنا أقترب من الجمع كانت التساؤلات تتسارع إلى ذهني تباعا... ماذا جرى؟ ...ولماذا؟...و... و توقعاتي تتوالى وتخوفاتي تتعالى...(عسى أن يكون خيرا إن شاء اللَّه!)... رددت هذه العبارة وأنا أقترب أكثر من الحشد...

الكل وقوف لا يراوحون أماكنهم، ورقابهم مرفوعة كأنما تتطلع إلى شيء أو تنتظر غائبا... ومن حولهم صبية الحي يلعبون ويمرحون وملامح البراءة تغسل وجوههم كالعادة...

اقترب مني الصبية يحيونني بمرحهم المعتاد وأنا لا أدري ما أقول... ولا كيف أمشي...

حييت الجمع الواقف، فرد بعضهم تحيتي بصوت مشوب بنبرات حزن وشيء من الذهول...

وقفت مع الواقفين في صمت يخترقه بين الفينة والفينة عويل النساء بالبيت وحوقلات الشيوخ بيننا، وخشخشات الحناجر حينما تبتلع الأفواه ريقها.

أدركت أن الأمر جلل... وبدأت ركبتاي تصطكان وضربات قلبي تزداد...

هممت بطرح سؤال على الجمع... لكن كيف أطرق أبواب الكلام وكل الأعناق مشرئبة وكل الأعين تحدق في الطريق، ولا أحد يلتفت إلي أو يعير لوجودي اهتماما...

مضت عدة ساعات ونحن وقوف... والكلمات تتدافع إلى حلقي فتتجمع فيه حتى خلته يكاد ينفجر... استجمعت قواي وأردت أن أكون أول من يبتر حبل الصمت لولا أن سبقني أحد جيراني، قائلا:

(سيأتون قبل غروب الشمس لا محالة ويعلموننا بأحواله إن شاء اللّه!)...

استبشرت خيرا، وعقبت مستفهما: (من تقصدون ؟).

لا أحد أجاب، كأنني لم أسأل أو سألت ولم يسمعوا...

قلت في نفسي – وقد عادت الرقاب إلى ما كانت عليه – : (كأنهم يخفون عني أمرا يهمني!)... لم أتمالك نفسي أمام الصمت المخيم وكادت دموعي تنفلت من محاجرها لولا أن شق صوت سيارة – مسرعة نحونا – صمتنا الخانق.

تجمع النسوة بباب البيت، وهرع كل الواقفين نحو السيارة إلا أنا !، بقيت في مكاني منتصبا كالتمثال أرقب النازلين... لكن سرعان ما دبت الحركة في أوصالي وتقدمت استوضح الأمر...

نزل جاري وابنه الأكبر وسائق السيارة، وقد قطع القلق صفحات وجوههم، وجرى الحزن مكانه منهم، والكل يسأل:

كيف تركتموه ؟... ما جرى ؟... أين هو ؟... لماذا تأخرتم ؟ ... هل استيقظ ؟... هل هو بخير ؟... هل... متى تأتون به ؟... هل...؟ ولا أحد من النازلين الثلاثة يجيب... تقدمت من جاري الذي لا أذكر أنه رفض لي طلبا مذ عرفته...

رمقني بعينيه الغائرتين وقد اعتراهما الذبول وخط بينهما الحزن خطوطه...

قلت له: (كيف تركتموه يا عم ؟)... و أنا لا اعلم من يقصدون .

قال بصوته المبحوح(ابنك يا جاري! بخير والحمد للّه، ولقد أجريت له العملية الجراحية وبترت رجله اليمنى).

أمسك جاري بي، واحتضنني وخر مغشيا عليه.

***

سفر الشوق

انتظرت مع المنتظرين دوري في الطابور الخامس...

بيد مرتجفة وقلب متضخم سلمتها رسالتي، وعلى شفتي انزلقت ابتسامة خجلى...

وقبل دفعة من ابتسامتها الميتة طويلا حدقت في...

ثم قامت...

فتحت الخزانة فكاد قلبي ينفتح ... في حافظة البريد الوارد أسكنت رسالتي فسكن الولع المشتعل

في شرياني الوارد...

وإلى أريكتها الناعمة مثلها عادت...

أخذت نفسا عميقا، وبسيل من الكلمات السريعة شرحت لي مخطط الشغل في إدارتهم مؤيدة شرحها بقرارات التعيين ومذكرات التقويم وأبراج التنجيم...

كل ذلك ولساني منعقد والصمت يسكنني...

بكامل وجهها الصبوح استدارت نحوي بعد أن سلقتني بنظرتها الجسورة، قائلة:

لا تنزعج ربما ستتغير الأمور مستقبلا... اهتف وســـــــ...

قلت: آنستي الفاضلة... دقائق من وقتك السمين... رجائي أن تقرئي رسالتي ولو مرة في العمر...

لا تمزقيها فعمري ساكن فيها ... وفرحة القلب تحيا في معانيها...

اقرئيها فقد عيل صبري وانقطع حبل احتمالي...

ارتعشت أرنبة أنفها قليلا وهي تمرر أصابعها الصغيرة بتوتر في شعرها الطويل ثم تنهدت و قالت:

حاضر... ونهضت من جديد.

تعبأت اللحظات قشعريرة أطارت حمام الطمأنينة من ساحة قلبي..

أتت برسالتي- وقد أرسى البوح سفينته على خلجان قلبي- وأنشأت تقرأها:

في بلاد الصبابة

لخمس خلون من عمرينا

أما قبل(1):

تتذكرين جيدا أول لقاء جمعنا في ملعب الأيام... أين تركتني أتخطى دائرة النصف وجميع الخطوط البيضاء...

ولما حاولت في نهاية المقابلة أن أستفسر عن عنوانك، شريط أيامك، مذكرة أحلامك، مفضلة ألوانك، جعبة أحزانك... أوصدت في وجهي الملتاع شباكك...

رغم أني علمت من تلك اللحظة أن شخصي المتواضع قد وقع فريسة لشباكك المفتولة وكلماتك المعسولة...وأن سوسن الأمل قد نبت على شرفات مقلتي...

ولا أدري بعدها لماذا تركتني- طيلة هذه المدة- أعاني كربا وشدة ضائعا خارج التماس موقوف الإحساس...

أتلقى من هنا وهناك ركلات جانبية أوجعت حارس قلبي الضائع في ميدانك...

وبكل روح روحانية أقر أنني لم أبحث عنك في حصة (كل شيء ممكن) لأنني ظللت طيلة هذه المدة أبكم...

وأقر أن وجودي وراء العارضتين لن يفل إصراري الدائم على عدم البقاء متفرجا في كراسي مدرجاتك الفارغة إلا مني...

سوف لن أنزع بذلتي الرياضية حتى وإن صممت على طردي من ملعبك بالبطاقة الحمراء القرمزية...

سوف أظل أراسلك- وإن أخطأت عنوانك- حتى أملأ برسائلي جميع صناديقك البريدية...

سأرفع ضدك دعوى قضائية يا ساكنة قصور أوهام عاجية...

عريضة افتتاح دعوى قضائية

من ساحة إلى ساحة

لفائدة: الهائم بن النائم الساكن بحي الالتياع، المهنة: باحث .. عن الضياع.

ضـــد: صـــاحـــبـــة الوقـــت الســـمـــيـــن...

ليكن عند حسن ظن عدالة رؤساء أوحالك- عفوا- أحوالك الشخصية.

حيث أنني أحوز قلب صاحبة الوقت السمين حيازة ظاهرة ومستمرة وهادئة منذ أول يوم تعرفنا فيه على القاعدة وتناولنا فيه طعاما على الأرض لا على المائدة وخالفنا السنن السائدة.

حيث أنني سبق وأن طلبت تجديد اللقاء ومن ذلك اليوم لم أهدأ ولم يهدأ روعي خصوصا بعد أن حكم قاضي قلبها بعدم الاختصاص النوعي.

حيث أقنعت بعدها قاضي الأمور الاستعجالية بتصنيف دعوتي ضمن دعاوى العودة إلى المساكن الوردية وبكل اعتزاز وفخر تحملت مصاريف نظارتها الطبية (2).

حيث أقسمت ألا تسيل دموعي ،وإن حجزت تحفظيا بل وتنفيذيا على جميع مصابيحي وشموعي،بل حتى وإن تجمد في أجفاني التعب وسكن في أحشائي الصخب....

وبناء على ما تقدم ذكره ألتمس :

- أن تأمروا لا محالة بسفري إلى الحجاز بغية تعقيد مراسيم الزواج.
- وأن تأتوا لي بها من الأهواز وتقروا بحيارتي لقلبها على المجاز.
- و لا تتركوني كالظل وراءها أجري والناس ترمقني وأنا أجول بين الكر والفر.
- وأخيرا أن تمهروا أمركم بصيغة سرعة الإنجاز وتثبتوا لنا عدم الانحياز.

توقيع المغني

الملصقات والمرفقات:

- طلب تجديد اللقاء.
- الحكم القاضي بعدم الاختصاص النوعي.
- شهادة تثبت عدم هدوء روعي.

الهوامش والهواجس:

(1) – عفوا نسيت السلام (منا السلام تبثه أشواقنا ما ضاعت الأنسام والأطياب).

(2)– كوني قوام عليك.

أنهت قراءة الرسالة وفي شفتيها ألقى الصمت دهشته... أزاحت خصلة نافرة من شعرها الذهبي... ثم تنهدت وخاطبتني قائلة:

- خاطرة جيدة... ويؤسفني أن لا أقرأ لك بعدها...
- سيدي أنا مشغولة على طول...

كقط مبلول انتفضت وبسلة المهملات ارتطمت...

هدأت من روعي قائلة:

- لا تنس يا (... نسيت اسمك) خذ وصل الوداع...عفوا... وصل الإيداع.

ورحت وراحت تشيعني بابتسامة كاذبة ولا أظنها سمعتني وأنا أصيح في داخلي:

- نـــكرا سيدتي... لا تمزقيها فحبنا ساكن فيها!

***

فيضان اليوميات

الخميس صباحا:

مسكين أنا... مسكين أنا...

أمام المرآة كنت واقفا تحدث نفسك، وقد ارتسمت على محياك خطوط الزمن وتجاعيد الهموم...

اليوم حفلة ميلادك الأول بعد الأربعين...

حضر أهلك كلهم الأطفال والرجال والنساء وأصحاب الظهور المائلة من ثقل الاستعمار الجاثم فوقها والرضيع الثائر وأمه...

دخلوا غرفتك بعد أن بلغت الشمس كبد السماء... غرفتك التي تحملك وتحمل سرك سرها...

كل ما فيها أسود كالح، الطاولة، الكرسي، المرآة، السرير، مكتبك الخشبي...

كل شيء قديم حتى أنت...

سألك بعض الحاضرين كم من الطعام أكلت...

بصوت أجش قلت:(ربما عشرين قنطارا أو حمولة سفينة متوسطة... لا أدري بالتحديد... ولعلي شربت ثلاثة صهاريج من الماء بعد زواجي حسب تقدير زوجتي التي طالما نصحتني بالتقليل من الماء خوفا من الجفاف القادم...)

أحضر لك كل المدعوين هدايا... فتحتها كلها إلا هدية الرضيع قررت ألا تفتحها حتى يبلغ أشده لحاجة في نفسك قضيتها، لم تمض لحظات بعد ذلك حتى تجمع العرق على جبهتك التي بدت لك على مرآتك الصدئة مجعدة كجباه عجائز الهنود الحمر...

ضبطت المنبه على توقيت المساء وراجعت إغلاق باب الغرفة جيدا، ورحت تغط في نوم عميق وتسبح في العرق في وقت أغلقت فيه كل المسابح.

الخميس مساء:

نهضت ضيق الصدر تائه الأنفاس مصفر الوجه وقد ارتسمت خيوط العنكبوت على محياك البائس...

الدار خالية إلا منك... والحفل انتهى منذ ساعات والجميع أدبروا من حيث أقبلوا إلا أنت... بقيت منزويا في الركن الجنوبي من الغرفة المظلمة كوجه أمك الصغيرة... في محاجر عينيك تكونت قطرات دمع سرعان ما أوقف سيلها رنين جرس هاتفك المحمول...

- من؟
- أنا!
- من أنت؟
- الرضيع... هل فتحت هديتي؟ لقد بلغت أشدي!

- لا لم أفعل... عفوا... تذكرت لقد أرسلتها منذ زمن طويل إلى أمي الكبيرة بمناسبة زواجها الثالث!

الجمعة صباحا:

اصطدم رأسك برأس زوجتك التي لم تجد ما تقوله لك غير نصيحتها المعتادة بالإنقاص من شعرك الطويل الذي غطى عنك مجال الإبصار...

هذه المرة قبلت النصيحة ودخلت محل الحلاق المقابل لبيت أرملة جارك المفقود إبان سنين الجمر والرماد... ورجت تجول بعينيك داخل المحل الضيق...

وقبل أن يرتد إليك بصرك أبصرت صديقك (كريم) ينتظره دوره...

انتهزت فرصة لقائه... استقرضته بعض النقود فاعتذر..

كان سمع الحلاق يلتقط الجوار الذي يدور بينكما... أقرضك ما طلبت واشترط عليك أن تعلمه الخطابة فلم تجد بدا من الموافقة...

مساء:

يممت وجهك شطر الجامعة، وفي الطريق إليها آخر الأخبار تقول أن أستاذكم الجديد أحيل على التقاعد...

داخل سيارة الأجرة أصوات صداها يكاد يفتق طبلتي أذنيك المحمرتين...

كل من حولك نساء والسائق إمراة...

عطر التفاح الإمارتي يهدهدك ومخاط الموز المتعفن في فم السائقة يفسد عليك أنفاسك المختنقة ودخان سجائر (إلهام) يتبعك، يلج أنفك، يمزق الروائح المنسابة نحوها...

مزقت حجاب الصمت المضروب عليك وطلبت من السائقة أن توقف السيارة...

نزلت، أدخلت يدك اليسرى في جيبك الأيمن وأخرجت النقود وبصرك يتفرس وجه السائقة الملطخ بالموز والجوز واللوز...

وقلت(كم تطلبين يا عانسة عفوا آنسة؟)

ضحكت ضحكة سخرية وتهكم وعقبت قائلة:

(نقودك بلا عنوان زائفة مثلك... أهي نقود عصرنا أم عصر الأوهام؟)

وجدت في الصمت ملاذك الوحيد، حزمت نقودك وأوراقك وواصلت دربك كأعرابي مرتحل تاركا التاكسي والنساء...

السبت صباحا:

أخيرا إلى الجامعة وصلت، كالغمامة هي، الوحشة تكتنفها، لقد تبللت وتبدلت كثيرا هندسة عماراتها وألوانها المنساحة خلف الاصفرار كذلك...

حائرا انطلقت تجوب شوارعها الضيقة تستعيد أجمل ذكرياتك القديمة الجديدة...

لكن برودة الجو تفسد عليك روعة التذكر أو تكاد...

نحو محل لبيع الملابس انطلقت...

(ماذا رجل؟) في ظمأ رهيب للسخرية قالتها الآنسة الوحيدة التي أمامك.

قلت(نعم رجل أتيت أبتاع ملابس تقيني قر هذا البرد اللاذع!)

قالت: (امض لشأنك يا رجل يرحمك اللّٰه فلا وجود لما تريد)...

سأمضي سأمضي لن أعود... كلمات رددتها وأنت تحث الخطى نحو محل آخر...

رجلاك أنهكهما التعب ولا أثر لملابس الرجال... كل شيء لهن... حتى دورات المياه لهن فقط...

لم يترك لك الاضطراب الراقص في ذهنك الفرصة لأن تستفسر أكثر...

لممت أشلاءك الممزعة وهدأت أسلاكك العصبية المهتاجة وعدت إلى البيت تجر أذيال الخيبة وحبال الشك والريبة وقد مد الليل عباءته السوداء على كل شيء وعم الصمت بلدتك التي بدت شبه ميتة...

جرس هاتفك المحمول رن من جديد...

أمك الشمطاء بوابل من السباب والشتائم واللعنات تقذفك... ولكنك كالعادة لم تول لدلائها أي اهتمام...

نحو النافذة المغلقة توجهت... السحب تمتد في كل الاتجاهات ومنظرها يوحي بأمطار طوفانية وبرق ورعود...

ارتديت معطفك الجلدي القديم وهممت بالخروج..

هدية الرضيع عند الباب وجدتها وتحت سريرك في صندوق حديدي وضعتها... وأنت تردد بداخلك: لعلها لم تعجب أمي!

الأحد صباحا:

فيضان كبير أصاب بلدتك...

ضاع منك الصندوق والسرير وضاعت الهدية وضاع أملك الوحيد وحلت بك لعنات أمك...

بلدتك اليوم مغسولة بالدموع والمطر وبذلتك كذلك...

الشوارع والأرصفة تبدو خالية تماما من الأنام والأنعام... مليئة بالحطام والعظام...

والأشجار تبدو لامعة كعيون الدامعة...

شؤم الفيضان ولعنات أمك أصابا زوجتك بهلوسة وداء غريب...

الليلة التي سبقت الفيضان كثرت فيها غمغمات زوجتك... ومساء الفيضان تغيرت طباعها جملة وتفصيلا...

أصبحت لا تجلس على كرسي حتى تغسله ولا تشرب من كأس حتى تشبعها صابونا ولا تأكل خبزا إلا بعد مسحه تكرارا ولا تبلعه إلا والقيء يردفه...

أما أنت المسكين فلم تجد تفسيرا للأمر ولا أحسن من التزام الصمت أمام منظر زوجتك المهول وقد غدت شفتاها كطائر مبلول وعشعش طائر الحزن على تقاسيم وجهها الذي كان غضا طريا ومن أعماقها صدرت صيحات منكرة قضت عليكما مضجعكما وأرقت ليلكما...

مساء:

عاد الدم الساخن إلى عروقك الزرقاء من جديد وبذلك استطعت أن تصرف عنك ثعابين الحزن التي أحاطت بك إثر فاجعة الفيضان...

هذا العام لن تخاطر بشراء الملابس، لقد رأيت حصة الملابس المخصصة لكم معشر المفجوعين في التلفاز كما قالت المذيعة التي أنستها الكارثة ارتداء ملابسها المعتادة...

أخبرت زوجتك المكلومة الفؤاد وأولادك وكل المفجوعين الذين صادفتهم في طريقك إلى مصلحة الأشياء الضائعة التي استحدثت خصيصا لتسجيل كل ما ضاع من أهل بلدتك يوم الفيضان المشئوم...

نحو الطابور الطويل العريض الممتد أمام شباك المصلحة تقدمت...

ومكثت تتأمل الواقفين...

لم يطل انتظارك أكثر من سبع ساعات وعشرين دقيقة حتى حان دورك وتحركت باتجاه الشباك متلهفا...

وأمام موظف المصلحة – الذي حاول أن يفتعل ابتسامة رقيقة غير أن الليل كان جالسا على وجهه– صرحت بشرفك وشرف زوجتك وأمك على صدق ما ادعيت ووقعت بالأحرف الأولى من اسم الرضيع...

وفي الصباح:

لبيت أنت وزوجتك المريضة وأولادك وأمك المتزوجة دعوة صديقكم (جون) الذي كان سيدا يشار إليه بالبنان أيام كان يعمل محاسبا في شركة المسامير التي تحولت إلى شركة لبيع البيتزا المستوردة بعد خصخصتها في عهد الرئيس السابق...

وفي باحة ترعة (جون) ذات الأبواب المشرعة على الداوم والنوافذ المطلة على وادي القهر تناولتم طعام العشاء معا الذي كان باردا كجو الشتاء... وشربتم بعدها كؤوس شاي بلا دخان!

وبعد ساعة خبط ونفير عام، أطلقتم لنقاشكم السفسطائي المعتاد أعنته:

قلت: إنك تقول دائما يا (جون) أننا لا نتعلم الأشياء ولكن نتذكرها فعلمنا كيف يتم ذلك.

قال: أو تظن نفسك (مينون) في حضرة (سقراط) تسألني أن أعلمك في الوقت الذي أقول فيه أننا لا نتعلم الأشياء وإنما نتذكر ما في أنفسنا!

الاثنين صباحا ومساء:

أعلنت المصلحة الجديدة فرض ضرائب جزافية على الأشياء الضائعة وبذلك استطعت أن تستلم أول راتب لك بعد أن مر على بداية عملك في تنظيف البلدة من آثار الفيضان أربع سنوات شمسية نحرت خلالها جميع خيول صبرك العجاف...

الثلاثاء:

شجار حاد حدث بينك وبين زوجتك التي وصلك صوتها عاريا تماما من الرقة والعطف والحنان مسبوغا بالغلظة والجفاف متبطنا حمم شتائم صدعت رأسك الطري وزادت أوداجك انتفاخا...

آثرت السكوت ومزقت الصورة والصوت وخرجت من البيت هاربا...

وفي طريقهم (هم) عرجت على محلات المدينة الخاوية بطونها... براتبك الأول اشتريت من دكاكين التغذية فرشاة أسنان وبابا للبيت وكيس طحين وقلما أحمر وكتابا للتربية الدينية...

دخلت سوق الماشية لتبتاع جديا للعيد... ولم تكد تمرر يدك على ثاني الجديان حتى أبصرت الحلاق حاسر الرأس مطأطئه على غير عادته فما كان منك إلا أن رددت له ما أقرضك وعدت خائبا...

على زغاريد الرجال دخلت بيتك المهدد بالانهيار وقد بدأ الليل يغرس أوتاده، وبالمولود التاسع هنأت زوجتك الجائعة والتي لم تتوان في قذفك بالشتائم والثياب والأغطية والوسائد والظفائر وحبات الطماطم والبصل...

الأربعاء صباحا:

استلمت هديتك الضائعة بعد أن قدمت إلى مصلحة الأشياء الضائعة: دفتر توفيرك وعقود زواجك وسجل تصاوير زوجتك قبل بنائك بها والبرامج المطبقة عليك لتنميتك وتنويرك وعلبة حبوب منع الحمل التي تتناولها جارتك والملابس الداخلية لأمك الكبيرة وفواتير الكهرباء والغاز ورقصاتك على وقع موسيقى الجاز وجرد شامل لكل ما تملك بما في ذلك (الصينية والفاز) بل وصباك المختبئ في وثائق ابيك القديمة...

وأكد لك مدير المصلحة أنهم (هم) قد وجدوا هديتك بعد تمشيط واسع وبطيء لتلافيف البلدة العائمة في الفوضى والموضة...

أمسكت هدية الرضيع الثائر وبيديك ضممتها إلى صدرك وفرحت كثيرا وبكيت قليلا ونمت بعد ذلك نوما سحيقا وعميقا فقد كنت من يوم الفيضان إلا يومك هذا لا تعرف النوم في الليل وفي النهار إلا في شهر رمضان...

استيقظت من نومك على صيحات أهلك أجمعين...

وتوجهت نحو المطبخ وبعد نقاش عقيم مع زوجتك المريضة قررت أخيرا أن تفتح الهدية وتفض البلية بحضور زوجتك وأولادك والرضيع الشاب وصورة أمه المعلقة على جدران الموت وأمك الشمطاء التي أنهت شهر عسلها الأخير أو الشهر الثالث عشر كما يحلو لها أن تسميه...

وفي حدود الساعة الخامسة والعشرين أنهيت قراءة الوريقات الصفراء على مسامع الرضيع الشاب الذي وجدته منذ أكثر من عشر سنوات مرميا في قعموطه...

أهديته الهدية بمناسبة إطفائه الشموع التي وجدتها معه...

فأكد لك وأقسم ثلاثا جازما أنها ليست الهدية التي أهداك...

قلت: لا أدري... ربما غيرتها أمي... ربما غيرتها أنا... ربما غيرها الاستعمار... ربما غيرها الفيضان!

واستوت على: ولكن لم تغيرها المصلحة!

وغيظ الكلام وقضي الأمر.

***

قهوة عربية

جراب الماء على ظهرك والقدوم معلقة في وسطك...

وأنت تجري والذعر وراءك يجري والرصاص يتبعكما...

وأكوام الجثث الملطخة بالدم والطين تعيق سيرك...

وأصوات الصراخ والنحيب وزغاريد النساء تطرق سمعك من كل حدب وصوب...

كل شيء حولك يتحرك في تناقض وجنون...

وسط الشارع توقفت قليلا لتلتقط نفسك المتقطع وقد سكن الذعر جوانحك...

لم تستطع أن تحدد وجهة لسيرك فالغبار المثار ودخان الحرائق ملآ عينيك ولم تعد ترى شيئا.

لحظات مرت وأفقت على صراخ امرأة لم تتبين غير بريق عينيها وبطنها البارز...
وهي تشدك -بكل ما أوتيت من قوة - من قميصك الملطخ بالدماء والأوحال...
(تحرك يا ... لماذا تقف كالأبله ؟ إنهم يذبحون الجميع! انج بنفسك).
حاولت أن تجيل بصرك المشدوه في صفحات وجهها الذي سرعان ما غطته ألسنة الدخان المتصاعدة وتوارى بين الأنقاض ...
غير أن كلماتها دوت في أذنيك كالقذيفة فأعادت الحركة إلى جسدك المنهار فرحت تركض وتركض...
وأنقاض المنازل وأكوام الجثث تشل حركتك وتعيق ركضك وبريق تلك المرأة يتبعك.. يملأ عينيك ويخالط أعصابك ونبرة صوتها تعزل عن أذنيك صدى المدافع والقذائف و أزير الطائرات الحربية التي تحجب الشمس...
من تكون تلك المرأة ؟ قلت في نفسك: لا وقت لدي للتفكير أكثر...
لقد كان لزاما عليك أن تذعن لكلمات تلك المرأة و تلحق بالجموع الهاربة...
فطفقت تجري بخطوات أسرع لكنك لم تعد ترى غير بريق أضاء لك طريقا ضيقا وسط الأشلاء البشرية و أكوام الرماد وبقايا السيارات المحروقة...
دخلت شارعا آخر وولجت أول مقهى قابلتك...
هدأ روعك قليلا بعد أن انزويت في أحد أركان المقهى.
ورحت تحدق في التلفاز وتصيخ سمعك لنشرة الأخبار:
- هذه أبسط جرائم الضابط الرهيب، لقد خطب فينا قبل الخروج إلى المذبحة:
"اسمعوا يا فرقة الشيطان: إننا معشر اليهود كمعشر القردة التي تترك قلوبها في مخادعها كلما همت بالخروج كما تقول أساطير العرب وكتبهم المدرسية، فلا تدخلوا المخيم حتى تتركوا قلوبكم خارجه!
لا تتركوا الرحمة والشفقة تفسد عليكم يومكم...
أطلقوا النار على كل شيء يتحرك... سيقولون عنا مخربين، لا يهمنا ذلك ولا تهمنا الأعراف الدولية.. نحن نعمل بوصايا التلمود...
إن المخرب الجيد هو المخرب المميت...
نحن نحب السلام... نحن نحب الفلسطينين ولكنهم يكرهوننا...

إنني أشعر بالألم الشديد عندما أرى عربا أو أتحدث إليهم... ولا أعرف لماذا ولد هؤلاء ... إن هتلر الكلب كان عليه إن يحرق هؤلاء بدل جريمته بالآباء والأجداد!!"

– حدثنا عما قام به الضابط الرهيب عندما دخلتم المخيم ؟

– لقد قام بتحطيم رؤوس الرضع على الجدران واغتصاب الفتيات... وكانت خطاه جد متثاقلة وهو يتحرك – تحت عبء بطنه المتدلية– بين الجثث والأنقاض والأجساد النازفة، ودماء البشر تعلو نعله اللامع وهو يصيح كالحمار: أنتم كلاب... ألم تموتوا بعد ؟!!

– هل يمكنك أن تصف لنا المخيم بعد المذبحة ؟

– نعم... لم يبق بعد المذبحة غير الدخان والعويل والدموع والدماء ورائحة الموتى وأكوام الجثث المنتشرة في كل مكان...

كل ما هنالك جثث.. قد تشابكت أطرافها.. أو محيت أعضاؤها والغريب في الأمر أن أسراب الذباب لم تكن تحوم فوق الجثث وإنما كانت تطاردنا نحن كأننا الجثث... وعندما غادرنا المخيم اقتدنا بعض النساء وما كاد يراهن الضابط الرهيب حتى صاح فينا:

جئتم بالنساء! أريد الرجال!

قلنا: قتلناهم سيدي...

صاح: تهانينا... تهانينا... إنها مذبحة سيسجلها التاريخ... تهانينا...!

- أيها السادة... ننهي هذا الموضوع الخطير... لنعرج على موضوع آخر ... إنه موضوع الحواجز...

نترككم مع هذا النقل المباشر ولنا بعد ذلك لقاء...

- لماذا بطنك مرتفع هكذا ؟ ... إنك تحملين متفجرات!
- لا.. لا... إني حامل!
- حامل... مستحيل... وما دليلك ؟
- لقد أتيت للتو من عند الطبيب... ها هي الأشعة!
- ها... ها.. أشعة... ارفعوا ملابسها لنتأكد من حملها!

عند هذا الحد... وقبل أن ينتهي النقل المباشر انتصب البريق بين عينيك مجددا فاضطربت في حلقك كلمات لم تجرؤ على إخراجها: زوجتي.. زوجتي...

ثم سرعان ما انفجرت شفتاك عن صيحة أذهلت الجميع:

إنها زوجتي يا صلاح... زوجتي يا مسلمين ... زوجتي يا عرب...

لم يطق المتواجدون بالمقهى صيحاتك فصرخوا بصوت واحد: أخرجوه إنه مجنون.

انتفضت انتفاضة كادت روحك تخرج معها وانطلقت في الشارع تعدو كالمجنون وصوت درويش يدوي في التلفاز على وقع موسيقى غربية:

أيُّها الواقفون على العَتَبات ادخُلُوا،

واشربوا معنا القهوةَ العربيَّةَ

لم تبتعد كثيرا عن المقهى حتى طفرت من عينيك قطرات دمع داريتها بكفيك... وصوت درويش لا يزال هادرا:

يا دامي العينين والكفين!

إن الليل زائلْ

لا غرفةُ التوقيف باقيةٌ

ولا زَرَدُ السلاسلْ!

نيرون مات، ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتلْ!

وحبوبُ سنبلةٍ تموت

ستملأُ الوادي سنابلْ... !

مــــســـــمــــار

كمستودعات القمامة تمثل ذكريات الماضي أمام عينيه المقروحتين...

ذكريات عتيقة ذابت فيها أيام عمره الفائتة...

كقلوب اليتامى تضطرب رموش عينيه الغارقة في الأمس الذاهب...

وكصوت الذباب طنين أذنيه كان ولا زال يؤرقه...

- لا تيأس!

كلمة أسكت بها (بعبوش) صمت نفسه الضجرة...والقلم الجاف بين أصابعه المهتاجة وقد انغمس في خربشات لا حد لها منذ أن فجر التبغ صباحا مداخل رئتيه الموشكة على الانطفاء او الانكفاء حسب تعبير طبيبه الأخير الذي لم يزره للمرة العاشرة كما وعده قبل أن تتعطل ساعة ذاكرته المنتفشة كشعر قطته سميرة بل نميرة التي أصبح يكرهها وتكرهه...

إن ذاكرته أصبحت لا تفرق كثيرا بين سميرة ونميرة فمن قديم والأولى زوجته والثانية قطته...

نحو سمعه كلما نام واستيقظ يسبح صوت نميرة...

ويصل إلى أذنيه صباح مساء صوت زوجته سميرة عاريا من الرقة والحنان ممتلئا بالعجرفة والجفاف...

– يا جاهل... يا أحمق... يا غبي... يا تافه ... يا بغـ ..

كلمات لا طالما أفسدت عليه يومه وليله... وجعلت حياته جحيما لا تهدأ ناره...

إنه لا يجد مساحة للبهجة المسروقة إلا أثناء غياب زوجته... فيعتلي كرسي مكتبه ويمسك بيده المرتجفة قلما يخرجه من منديله المتهدل والمملوء بالمماسيك والبهارات الطبية...

يهم بعد ذلك بكتابة شيء ما... القلم لا يكتب!

(تبا لك ولها)...

(لعل خرطوشته اهتلكت) يحدث نفسه...

مجددا يغرس القلم في الورقة...

كل شيء على ما يرام، غير أن مواء نميرة الجائعة يزعجه ويدق طبلتي أذنيه ويجعل رأسه الذي كان يعج بالأفكار خالي الوفاض...

في هذا الوقت بالذات وقبل أن يكتب كلمة واحدة، بدأت دقات حذاء سميرة تقرع كل شيء...

الباب، البلاط، الجدران الخرساء، بل وحتى الكرسي الذي يتربع فوقه...

– متعبة أنا من طول السهر!

بابتسامة مصطنعة عقب بعبوش:

- من طول السمر تقصدين سميرة... وأردف محدثا نفسه: لعن من أسماك سميرة!

- اخرس يا بـ... ـغـ ... ل!!!

وتوالت الشتائم وبعبوش ناصب رجليه كأعمدة الكوخ الذي عاشت فيه سميرة صباها البائس... كوخ يذكرها به بعبوش كلما بلغت عجرفتها حدا لا يطاق...

يذكرها بأيام كانت لا تجد فيها ما تستتر به صورتها الكاسفة ولا ما تسد به رمقها غير بيوضات العصافير في حجم مقلتيها المتعبتين - هذه الليلة وكل ليلة- من طول السمر.

يحول بينهما الصمت... فتحمل جسدها الثقيل لترتمي في أحضان سريرها العالي...

ويبقى بعبوش في كرسيه حاملا بين أنامله الناشفة قلمه الجاف الذي لم يكتب شيئا.

وتحت كرسي بعبوش تموء نميرة مرة أخرى... غير أن صوتها هذه المرة يصله كصراخ طفل صغير يستغيث فتشتعل شموع ذاكرته العمياء...

ويفتح الطبيب خياله للمرة الألف: (إنك مصاب بـالعقم... يا بعبوش! ولكن...).

يمسك بعبوش قلمه وبخط بدائي من عصر الأكواخ يكتب: ولكن... لا تيأس!!!

***

شهادة الأحلام

قلت اسمع يا صديقي:

الاســـــــم:

(هذا ما أوصي به وشهودي به عارفون في صحة عقلي وثبوت فهمي...

أوصي فلذة كبدي الوحيدة أنه إذا نزل بي الموت الذي نكرهه جميعا أن تحتاط على تركتي المخلفة عني،فتبدأ منها بتجهيزي وتكفيني ودفني... وما بقي من مال تتعهد به نفسها وأمها بحسن العناية ووافر الرعاية فإن المال عارية لا تدوم...)

هكذا كانت (سمية) تستمع إلى وصية أبيها وهو يشخص بعينيه إلى الفضاء حينا ويجيل نظراته الخافتة حواليها أحيانا... وفمه يرتجف كطائر مذعور ومن مآقيه الزرقاء تنهمر كماء البحر دموعه الباردة...

و(سمية) المسكينة ارتجفت فرائصها وتقلصت أساريرها كأنما الموت حل بها لا بأبيها...

ومن أعماقها انفجرت صرخة ألم مدوية كادت تنفجر لها قلوب الحاضرين...

العـــنـــوان:

على وقع صيحات منكرة كانت تصدر عن أمها استيقظت (سمية) في سابع صبيحة مرت على موت أبيها...

هزت أمها مرارا لتعود إلى وعيها وأسندت رأسها للوسادة...

- لماذا تتعبي نفسك هكذا يا ابنتي ؟

بمرور الأيام نفدت الأموال التي تركها الفقيد، ودق الفقر باب (سمية) وأمها وجدتها العمياء... ومحا لسانه آثار النعمة من وجوههم، وطوق الجوع بطونهم حتى كادت أعناقهم تنخلع عن أكتافها...

وكان لابد من إرسال الجدة العمياء إلى دار العجزة...

وبقيت (سمية) تعالج همها المعتلج بين جنبيها وتتعهد أمها بحسن الرعاية، أمها التي أصبحت تغضب لأتفه الأسباب... الأوهام لونت منظارها والآلام قضت عليها مضجعها والحزن والكمد يكاد يذهب بلبها ويطير بشظايا قلبها...

ولم يطل الأمر كثيرا حتى أسلست قيادها لعالم الهذيان...

فإذا تكلمت فلا تذكر إلا أختها وزوجها وأبيها الذين ضمهم عالم الأجداث منذ زمن...

ولطالما حاولت (سمية) أن تواسيها... ان تمسح عبراتها الباردة حد الصقيع... أن تمسك بآخر شعيرة تربط أمها بعالم الأحياء وتفصلها عن عالم المجانين...

حبها الشديد لأمها- وللحب شدته- جعلها تحيط بأمها سواد نهارها إحاطة القلائد بأعناق الخرائد...

لا تعرف للراحة طريقا، حتى بعد أن تطفل الشمس للإياب ويطير طائر الليل من مكمنه ويبسط أجنحته السوداء في الأفق تبق (سمية) إلى جنب أمها ساهرة دامعة العين محروقة القلب مكلومة الفؤاد...

تسهر عليها ليلها وتكلؤها نهارها...

شهر كامل لم تخالط سنة الكرى جفني (سمية)...

الجـــنــــس:

هكذا كانت (سمية) تحكي لزوجها (جامد) حياتها الأولى... لعل قلبه الساكن يتحرك... عله ينظر إلى الحياة كما تنظر زوجته... عله يشعر بما تشعر، فيبادلها الحب والرحمة كما هي تفعل...

رغم أن شعره قد استقبل أول طلائع الشيب إلا أنه لم يتخذ يوما قرارا حاسما في حياته...

- إن أمك تعذبني يا (جامد)!!

كانت (سمية) كلما أسمعت زوجها هذه الكلمات لم ينبس ببنت شفة ولا بابن لسان...

فكرت كثيرا بالهروب... ولكن إلى أين ؟

إنه ليس من الصبر بد... الصبر على زوجها وعلى إساءات حماتها وتقبيل قدميها صباح مساء وبلا امتعاض...

التـــــاريـــــخ:

لم تجد المسكينة قلبا حانيا تقاسمه ما يجيش في داخلها من عذابات وآلام... وقرفت من الحياة بأجمعها وبقيت وحيدة فحتى عبراتها انحبست... عبراتها التي

طالما خففت عنها شيئا من آلامها المدفونة في حناياها... عبراتها التي كانت تؤنسها في وحشتها أنس المصدور بنفثاته والبائس بشكاته...

وزاد طينها بلة أن أصيبت بالنومشة وأصبحت تخاف الليل بشكل كبير...

خوفها هذا أضحك حماتها – الجامدة القلب كابنها- التي لم تعرف الضحك في حياتها قط!!

- **ولا أدري يا صديقي كيف أختم القصة ؟**
- **ربما!**
- **انتظر وجدتها... نهضت ليلا... ارتدت ملابسها البيضاء وهي لا تزال نائمة...**
-

التوقيع:

حزمت أمتعتها... واتجهت نحو أقرب مقبرة...

***

عبير الأنس

قد كانت تحت أهدابك الرقيقة تغفو ألوان قوس قزح حينما تمتزج نظراتك الناعسة بماء عينيك الجميل كما تمتزج أشعة الشمس بزخات أمطار الربيع الأخضر...

لكن أهدابك اليوم لم تعد كما كانت فقد غطتها أتربة الزمن العتيق... زمن الرياح التي لا تهدأ ولا تستكين... زمن أصحاب الأقدام الحمراء...

هؤلاء الذين ابتعت منهم حذاءك الرمادي الذي تنتعله... حينما قدموا إلى بلدتك كالجراد المنتشر...

فجعلوا من لون بلدتك أحمر فاقعا بعد أن كان أبيض ناصعا...
هؤلاء الذين ستبقى تذكرهم كلما نظرت في المرآة فرأيت الغبرة تتمشى في أديم وجهك وكلما فتشت مستودع ذكرياتك المخبئة في غرفتك التي سكنتها عناكب الحزن وأبت عقارب ذكريات أصحاب الأقدام الحمراء أن تغادرها...
بل هي مصممة على لسعك كلما اقتربت منها... وستفعل إن فعلت...
إنك لا تزال إلى اليوم تذكر ما قالته لك أمك عن هذه الغرفة: (لا تدخلها يا ولدي، إنها مسكونة!)
نعم... لقد عرفت اليوم أنها مسكونة بالفعل... بالثعابين والعقارب... هذه الكائنات التي لا تمل من الاتفاق كل ليلة على لسعك... لكنها الليلة أكثر تصميما... إنها تخطط لقتلك... إنها لا تعرف الرحمة... ستأتيك وستنسل من كل حدب وصوب... من الباب، من النوافذ المغلقة، من بين عيدان القصب التي تغطي سقف غرفتك...
سيحيط بك الموت من كل الجهات... ستولج إبرها السامة في جسدك الناعم... ستصبح ولن يسأل عنك أحد... ستتجمد أطرافك...
لكن لا تقلق...
سوف يبقى لسانك رطبا وما عليك إلى أن تحركه ليعود النشاط إلى شفتيك اللتين دب النمل فيهما...
قل بملء فيك (لا حول ولا قوة إلا بالله)...
ستنزاح عنك ذكريات الكائنات السامة وتعود إلى مخادعها ويتسرب إلى قلبك سلسبيل بارد يطفئ ناره .

شيء في الخاطر

قالت جدتي:

كنت في صباي أرعى الغنم كعادة أطفال قريتنا، وفي يوم نسجت فيه السحب رداءها على وجه السماء...

وأنا عائدة بقطيع الماشية إلى البيت، انسلخت من القطيع نعجة صغيرة لم تكد تسلخ الثانية من عمرها، وحادت نحو سفح الوادي فتتبعتها بصيحات متتالية'

لكنها كلما سمعت صيحتي أسرعت أكثر...

وبقيت أصيح حتى جف حلقي، واحترت في الأمر...

أأترك الماشية وأجري وراء نعجة طائشة أم أعود إلى البيت وأتركها ورائي...

ولم يدع لي الظلام أي فرصة للتفكير، فقد بدأ يرسل أرجله السوداء عبر الوادي...
وطفقت أراقب نعجتي وهي تقترب من حافة الوادي وأسدل علي الفزع رداءه، حتى خلت قلبي يتمشى في صدري...
دقائق معدودات ولم اعد أرى غير الظلام يحيط بي من كل جهة فقد كانت ليلة حالكة الجلباب...
قبعت في مكاني وبداخلي اضطربت نار كادت تحرق أعصابي ...
ركن قطيع الماشية إلى النوم، وسكن كل شيء من حولي غير صوت نعجتي الذي كان يحز في قلبي حز السكين في اللحم...
وشعرت بصوتها يدعوني، يستنجدني، يستعطفني، وركبتاي لا تسعفاني على النهوض...
زفرت زفرات كاد ينقطع لها نياط قلبي ... وأزبدت بداخلي خاطرة سخيفة...
لكن ما عساي أفعل ؟ ... لقد فعلت حسنا... حافظت على قطيع بأكمله وضاعت مني نعجة واحدة ورحت أسوق الأدلة من نفسي لنفسي على حسن فعلي وتدبيري...
وسرعان ما استسلمت لسلطان النوم بعد أن أقفر المكان من الأصوات...
ولم أنهض إلا وقرص الشمس يعكس أشعته على لسان نعجتي وهي تمسح الغبار عن وجهي الذابل، وإلى سمعي وصل صوت كلبي العجوز الذي علمته تجارب الدهر إلا ينبح في ظل الشجرة...

لعبة الأرقام

منذ أكثر من ثلاث ساعات و(سهام) جالسة إلى جهاز الكمبيوتر ويداها لا تتوقفان عن الضرب على لوحة المفاتيح...

وعلى بعد خطوة منها يقف (سمير) ينتظر إجابة لسؤاله الذي طرحه منذ ربع ساعة على الأقل...

وأمام النافذة تقف (فريدة) وهي ملتصقة بجهاز التدفئة رغم أن الجو دافئ، تتصفح الوجوه وتقلب النظر في الغادين والرائحين، تجول بعينيها داخل المكتب حينا وخارجه أحيانا...

من جهاز التدفئة تنبعث حرارة شديدة رسمت على وجنتي (فريدة) دوائر حمراء انضمت إلى علامات القلق البارزة فوقهما...

إنها قلقة لأنها ترى نفسها معنية بسؤال (سمير) أكثر من (سهام) و لكنها لا تدري كيف تجيب...

لذلك اختارت الصمت والانتظار... لعل (سهام) تنجدها فتجيب بدلا عنها... أو على الأقل تتذكر خلال صمتها شيئا تدير به دفة الحوار...

إنها في التاسعة والعشرين من عمرها... لا يفصلها عن إتمام العقد الثالث إلا سنة واحدة...

من تخبره بذلك يندهش ويقول إنها كبيرة...

لكنها في قرارة نفسها تعلم أن الحياة صورة ترسمها وليست أرقاما تجمعها... هذا على الأقل ما تعلمته في المدرسة...

كما علمتها مدرسة الحياة أن الشباب ليس فترة عابرة... بل عقيدة تؤمن بها وإن شارفت السبعين...

هكذا تواسي نفسها كلما تفرست شهادة ميلادها...

تتلمس وجهها وتتحسس ما ظهر من جسدها...

ثم تحدث نفسها:

إني شابة يافعة أمتاز بحماس كبير ونشاط عظيم... بالأمس فقط أثنى المدير على حماسي وحيويتي ونشاطي...

أوشكت ساعة بكاملها أن تمر و(سمير) لا يزال صامتا ينتظر جوابا لسؤاله...

استاءت (سهام) من الصمت المخيم، وارتأت أن تفتح باب الحوار قائلة:

إنه ليس للزمن من شاطئ... إنه يجري... ونحن في جريه نمضي...

أرادت (فريدة) أن تضيف شيئا، إلا أن طرقا على باب المكتب أسكتها... فتحت الباب... فولج (سعيد)...

ألقى السلام وحي الجميع ببشاشته المعهودة...

وأضحت الفرصة مواتية لـ(فريدة) كي تدير الحوار إلى ضفة أخرى...

فقالت: الإناث في قريتكم يتزوجن باكرا! أليس كذلك يا (سعيد)؟

بكلمات مغتاظة رد (سعيد): لماذا تسألونني دائما عن أهل قريتي كأنهم جاؤوا من عالم آخر ؟

لماذا تنسبون إليهم كل شيء لا يروق لكم ؟

إنهم كغيرهم قطعة من هذا العالم الرحب!

أغلبهم أناس ظرفاء لطفاء تجري الوداعة على وجوههم، وأمي – كما حدثتكم مرارا – واحدة منهم، حتى وإن تزوجت وهي صغيرة... لقد تعبت كثيرا من أجل تربيتي... إنني أحبها كثيرا!

بلهجة اعتذار ردت (فريدة):

أنا لم أقصد ما تــقــول... أرجو ألا تسيء بي الظن ...

إن بعض الظن إثم يا (سعيد)...

أنهت (فريدة)تعقيبها وخيم الصمت من جديد...

إلى جهاز آخر– بعد أن ملت الوقوف– جلست (فريدة)..

وبيدين مرتجفتين طبعت على شاشة الكمبيوتر أرقاما متفرقة... لعلها تعبر عن عمرها... قال في نفسه (سمير).

مدت يدها – بتوتر ملحوظ – نحو فنجان القهوة... سقط الفنجان...

صاح (سمير) الذي كان يتأهب للخروج:

لقد سقط الجمل بما حمل!

انتفضت (فريدة) من مكانها وقد بدا الاحمرار واضحا على وجنتيها...

أما (سهام) فقد أخرجت تنهيدة قوية أخذت بعدها نفسا عميقا حتى شعرت بالهواء يملأ رئتيها...

لقد أيقنت أن صديقتها (فريدة) لا تملك جوابا لسؤال (سمير)...

ولأنها لم ترغب في الانتظار أكثر... ولأنها تود أن تنس لعبة الأرقام إلى الأبد، فإنها ومن دون أن ترفع رأسها عن الجهاز قالت:

اسمع يا (سعيد) إن كراهية الأنثى لما قلت غريزة مغروسة فيها!!

فما كان من (سعيد) إلا أن وضع أصابعه على شفتيه وانصرف...

بائع الشاي

حدثنا جدي قائلا:

كان صديقنا جميعا وهو في الخمسين من عمره ونحن صغار لا يتعدى عمر أكبرنا العقدين...

والآن بعد أن مات منا من مات وأصبح عمر أصغرنا لا يقل عن عمر صديقنا (عشعش) بائع الشاي...

وبعد أن افترقنا... لا نزال نذكره في رسائلنا ومكالماتنا الهاتفية وحكاياتنا لأبنائنا وأحفادنا... نذكره في الأفراح والأتراح... في المآتم والأعراس... لم ينسه منا أحد... لم ننس شعره المجعد، شواربه الموزونة، لحيته الكثة، حواجبه المرفوعة، حذاءه اللامع، صوته المبحوح، خاتمه الفضي، شايه ذي الرائحة العطرة وقبل كل ذلك أياديه البيضاء وهداياه الجميلة...

كنا لا ننس ونحن ذاهبون إلى المدرسة أن نمر على حانوته، فنحييه ونستمع إلى نكته المرحة وأحاديثه الطريفة، ونتذوق طعم شايه قبل أن يقدمه إلى زبائنه...

وكنا لا ننسى أن نودعه ونحن راجعون من المدرسة مساء ونتجرع ما تبقى لديه من شاي...

ولكن ما أثار انتباهنا وشغل أذهاننا الصغيرة مسحة تشاؤم كانت ترتسم على محياه كلما هم بمغادرة حانوته متجها نحو بيته ...

كنا نظن أنه لا يحب مفارقة زبائنه أو أنه يفتعل ذلك من أجل أن يمازحنا...

ومع مرور الأيام تأكدنا أن وراء ذلك سرا آخر لا يريدنا أن نطلع عليه...

ولصغر أعمارنا آنذاك سرعان ما نسينا هذا الأمر، بل لم يبق فينا من يعير ذلك كبير اهتمام...

وقد مر اليوم أكثر من ثلاثة عقود على موت صديقنا (عشعش)...

ويومها سالت دموعنا جميعا وأثارت الحيرة تساؤلاتنا الكثيرة...

ما هو السبب ؟ ولماذا؟ وكيف؟ وأين؟

لم يكن مدخول شايه ذي الرائحة العطرة يزيد عن قوت يومه، لذلك لم يترك وراءه إلا الحيرة والتساؤلات...

ولقد أصبح اليوم بيته مأوى الزوار ومحط الأنظار، وزوجته احترفت الشعوذة، ووحيده رمي في غياهب السجن بعد أن طعن أمه بسكين فنجت من الموت بأعجوبة...

هذا كل ما ذاكرتي- يا أولاد- من أمر الدراسة ومن أمر بائع الشاي صديقنا الذي سميناه ونحن صغار (عشعش) فعاش في قلوبنا ومات كأن لم يعش وانتهت الحكاية وبعد الليل يأتي الصباح.

***

وساوس قلب

نهضت ذات صباح ضيقة الصدر خائرة القوى تائهة الأنفاس مصفرة الوجه مضطربة العود وقد خالط روحها الانقباض...

غسلت وجهها وأطرافها وعادت إلى غرفتها...

وعلى كرسي مهترء تهالكت بجسدها المنهك كجثة هامدة لا تتحرك فيها غير هواجس مشوشة يقشعر لها بدنها الضعيف...

فتحت الكراسة... وبصوت أجش وعيون متعبة راحت تقرأ سطورها... ولم تمض لحظات حتى تجمع العرق على جبهتها التي بدت اليوم مجعدة كجباه العجائز...

رمت الكراسة جانبا... وحركت رأسها الذي غدا ثقيلا لم يقدر جسدها الضعيف على حمله...

تفرست المكان من حولها... أبصرت الدمية... تحاملت واستوت على قدميها ومدت إليها يدها المرتعشة كشفة شيخ كبير... ضمتها إلى صدرها بعنف وعادت إلى مكانها...

إنها الدمية التي اتخذتها بنية لها منذ ثلاث سنوات...

كل شيء الآن ساكن من حولها... حتى عقارب ساعة معصمها توقفت- فجأة- عن الدوران...

غير أن قلب (عفاف) لم يتوقف وتفكيرها كذلك...

فهي لا تزال تفكر بطفل صغير يرسمه لها خيالها الجامح كلما ضمت الدمية إلى صدرها...

طفل تضمه -كما الدمية- وتسقيه- كما الزرع- من معين حنانها الفياض...

فمنذ أن دلفت باب الثانوية تحركت خواطرها وانسابت الشطحات إلى خيالها وسكن جوانحها وخامر مشاعرها حبها لأن تكون أما لوليد تهبه قلبها ولبها وكبدها وتصب فيه سيول حنانها الدافقة...

طفل يملأ عليها بيتها براءة ونورا وقلبها حبا وودا... ويخفف عنها شيئا من حرارة الأمومة المشتعلة بداخلها...

يناديها بصوت عذب: يا ماما، فتجيبه: يا حياتي، يا دنياي، يا أغلى ما في هذا العالم الرحب...

غير أن أشواك الحيرة تجرح قلبها اللين وتنغص عليها حلمها الجميل وتبدد شمس خيالاتها...

حيرة الاختيار بين أن تكمل دراستها... فتنال شهادتها، وتشبع بذلك رغبتها في التعلم فتحيي كل من تلقاه وتخبره بنجاحها وقبل كل ذلك تحقق أمل والدتها الحنون التي تنتظر بفؤاد فارغ خبر نجاح ابنتها...

وبين أن تترك مقعد الدراسة وتصبح أما لوليد تكتحل بمحياه البريء عيناها الحالمتان وتتحقق بميلاده أحلامها الوردية وتمتثل لنصيحة أبيها الذي لم يدخل المدرسة قط..

لو دخلت عليها أمها في هذه اللحظة لألفتها تسبح في العرق... وقد انمحت تلك الابتسامة الوضاءة من وجهها البريء وارتسمت مكانها خيوط واهية كبيت العنكبوت... ولبست الحيرة روحها...

وهي في قمة حيرتها سرعان ما اختطفها طائر الأحلام لترحل رفقة دميتها الصغيرة من عالم الواقع إلى عالم مشيد على هواها...

لتدخل (القفص الذهبي) -كما يحلو لبنات الثانوية تسميته- بفستانها الأبيض الفضفاض...

وقد انتعل أصبعها الصغير خاتم الزواج وعلت قلائد الذهب الإبريز جيدها الناصع ورصعت اللآلئ أذنيها...

وهي تتطلع في مشيتها على سطح قاعة فسيحة أرجاؤها... بلط البلور جدرانها وأنارتها ثريات كبيرة وهوتها مراوح لا تهدأ...

وأبوها يلوح بيده... مبارك عليك... شاعك الخير... صحبتك السلامة يا ابنتي...

وفرق الموسيقى تعزف أحلى الألحان... والرقص قد طاب وكل من دعي إليه أجاب...

شهر العسل يمضي... شهران... ثلاثة... أشهر عدة...

أحست (عفاف) بحركة تهز جذعها الطري... وآلام و أوجاع تعصر عودها المنهك... وتقوض بطنها المتداعي...

وبمرور الأيام أصبحت طريحة الفراش... فخلدت إلى أسرة المستشفى... يومان... يوم... بضع ساعات... العد التنازلي بدأ...

مدت عينيها المتعبتين... كل شيء حولها أبيض كفستان عرسها...

لا شيء يتحرك غير الألم في أحشائها والعيون المرسومة في البياض المحيط بها...

زفرت زفرات مصت لها شفتيها اللتين كادت الحياة تهجرهما...

– أسرعي يا ابنتي ستتأخرين عن امتحان الباكالوريا ؟

من خيالها الجارف أفاقت (عفاف) على صوت أمها التي أسرها القلق على مستقبل ابنتها...

ازدادت أعصاب (عفاف) توترا وهي تداري دميعاتها المتناثرة، وتراقب عقارب ساعة معصمها التي يبدو أنها تتحرك الآن...

لم يبق من الوقت إلا القليل... و(عفاف) لا تتحرك من مكانها كأنما غرست فيه ودموعها جامدة في محاجرها...

وسرعان ما غالبها الدمع وراحت باكية...

الأم لم تسمع غير البكاء...

دخلت غرفة ابنتها... فلم تر غير الدموع...

صرخت صرخات فاجعة...

وجبذت الباب بقوة وهي تولول وتدق على صدرها...

وتمد يد البدار إلى الصدار تبغي تمزيقه!

***

القمر الثاني

كنت لا أخشى النوم في الشارع، لكن هذه الليلة أقبل الظلام كثيفا وغاب القمران رغم أني انتظرتهما طويلا...

القمر الأول غطته السحب السوداء والقمر الثاني لا أعلم ما الذي أخره فعيني لم تكتحل بمحياه هذا المساء...

دخلت في خزانة حديدية وأحكمت إغلاق الباب وكسرت المفتاح...

بحثوا عني قليلا.. ثم تجمعوا...

فمن قائل يقول: لعله هنا.. وآخر: توقفوا ابحثوا عن العلبة السوداء أولا... وآخر: فتشوا عنه وسط قنوات الماء...

وبين أصواتهم جميعا تحسست صوت القمر الثاني يهتف:

إن كان ولا بد... فإني مطلعكم على مكانه بشرط أن تتخذوا عليه مركزا للاتصالات اللاسلكية فقد كان ذلك هو حلمه الوحيد منذ ولج باب الجامعة...

توقف الصوت فجأة وتسرب بصيص ضوء داخل الخزانة وأحسست أن السحب قد انقشعت وأن القمر الأول قد سطع...

***

ثقوب الذاكرة

عبر الشعاب الضيقة بدأ الظلام يسدل رداءه رويدا رويدا... والسماء أغمضت عينيها فوق القرية المغرقة في السواد...

و (جميلة) واقفة تحملق في مياه الوادي المنسابة في هدوء، وتودع الشمس وهي تكاد تلج خدرها بالكلية، ساحبة آخر خيوطها الضوئية الخافتة...

طويلا وقفت... تسرح ببصرها في هذا المنظر الجميل... لعله يرمم جدران نفسها المتداعية ويبعث في قلبها البريء نشوة لم تشعر بها من أمد بعيد...

وقفت... تخاطر بالتقاط بعض نسمات المساء الرقيقة التي لم تداعب أرنبة أنفها من سنوات...

منذ أن حرمت من الاقتراب من النافذة...

هي اليوم تحاول التخلص من قيود ظلت تأسرها... من ألم يعصرها، ألم دفين، يسجنها... يأكلها!

وقفت... ونسمات الهواء تعبث بخصلات شعرها... تعانقها... تخامرها حتى الوريد... تعشش في قلبها... تنسيها غربة طفولتها بين الجدران الأربعة لغرفتها...

لم تقترب كثيرا من النافذة حتى أصابها دوار لم تعهده...

ابتعدت قليلا... لكن... في الخارج... شيء ما يدعوها... يمسكها من تلابيب قلبها... يجرها نحو النافذة...

ومن النافذة تطل... مجموعة خيوط كهربائية ملتفة ببعضها البعض كثعبان لا رأس له... ومن ورائها مكبر صوت رافعا هامته في الفضاء... وغير بعيد عنه نصبت راية حز تقلب الفصول في جسدها العاري من ألوانه المعهودة... وخلفهما أعمدة حديدية مهترئة تمتد في شكل مستقيم في أعاليها آثار سياج متآكل...

وبقايا مقبرة القرية في أعلى الهضبة...

جالت (جميلة) ببصرها في هذا المنظر قليلا ثم سرعان ما أبصرت أمام البيت المنفرد عن بيوتات القرية شابا متكئا على الجدار واضعا يديه على ركبيته رافعا ذقنه وتاج رأسه نحو الأعلى كأنما يتبع بعينيه الشمس وهي تودع آخر ساعات النهار...

بدأ قلب (جميلة) ينبض بشدة وهي تحدث نفسها:(لعله يرمق تلك التي خرجت من بيتها جارية وراء أخيها الصغير... ولعلها مثله... تصطنع الخروج... ولعله يرمـــ...ق ... ولعله... ولعلهـــ...).

وهي تسترسل في خيالها الجامح... أحست (جميلة) عينا ترقبها... أشاحت بوجهها... ولملمت أنفاسها المبعثرة... واتجهت نحو النافذة الأخرى...

ولم تكد تضع راحتيها على حافة النافذة وترمق يدها اليمنى حتى دمعت عيناها...

عطست عطسات متتابعة كادت تسيل لها روحها... سرعان ما أردفها سعال حاد تبعته رعشة موحشة سرت ببدنها وهي تخاطر بفتح النافذة...

ومن وراء الزجاج أبصرت طفلا صغيرا يكاد يستحيل كتلة لا شكل لها وهو يقفز فوق الأعشاب اليابسة وبيمناه سمكة مزدانة بألوان الطيف!

زاد سعال (جميلة) حدة... أحدث في الغرفة ضجة...

- **ألم أنهاك عن النافذة يا (قبيحة) ؟! هل تريدين أن أفقدك أصبعا أخرى؟!**

صوت قبيح كان كافيا لسد ثقوب ذاكرة (جميلة).. وأفاقت على وقع دقات الساعة بعدما استرجعت بعض ما قاسته مع زوجة أبيها...

وانفجرت دموعها ساخنة كمياه الحمام حتى بللت الورقة التي كان زوجها قد تركها ليلا في يدها بعد أن شاجرها وكتب فيها: أيقظيني على الساعة السابعة يا (جميلة)!!

***